# بسام طيبي وجولت روشتوفاني: الحرب الصليبية والجهاد إذ يتحولان الى أميركانية وإسلاموية تناهضان الحرية

ثائر صالح *

■ يطمح بسام طيبي المولود في دمشق والمقيم منذ عقود في ألمانيا إلى لعب دور الجسر بين الشرق والغرب، بعد أن اختار الانتماء إلى الحضارتين معاً، من دون أن يكون انتماؤه ميكانيكياً، فهو انتماء لا يخلو من النقد، نقد كل ما لا يتفق مع التطور الإنساني العالمي وما يدعو إلى احتكار حضارة معينة للقيم، وما يدعو إلى المجابهة مع الحضارة الأخرى، وذلك بحسب تعبير البروفيسور جولت روشتوفاني الذي وضع دراسة ختامية للترجمة الهنغارية لكتاب بسام طيبي «حروب صليبية وجهاد: الإسلام والعالم المسيحي» الصادر عن دار كورفينا للنشر في أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٣. وهو كتاب يقول طيبي انه «محاولة علمية لدراسة تاريخ العلاقات الأورو – إسلامية من خلال الجهاد والحروب الصليبية». وطبعات الكتاب تتزامن مع استمرار سوء فهم السياسيين الغربيين للعلاقة موضوع الكتاب: فقد صدرت الطبعة الأولى باللغة الألمانية في العام ١٩٩٩ أيام حرب كوسوفو، والطبعة الثانية في ٢٠٠١ بعد أحداث ١١ أيلول، وتصدر الآن الطبعة الهنغارية بعد احتلال العراق. وفي كل هذه الأحداث بنيت السياسة الغربية (والأميركية تحديداً) على أساس فهم خاطئ أو قاصر للخلفيات التاريخية والثقافية للعلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي، وهذا أحد استنتاجات الكتاب، فهو يشير إلى أن السياسيين الأميركيين لا يفهمون الأهمية الاستثنائية لحوض البحر المتوسط بالنسبة الى سياسة الاتحاد الأوروبي، مثلما يغفلون حقيقة مهمة هي أن السلام في الشرق الأوسط يعني في الوقت نفسه السلام بين الدول المطلة على شواطئ المتوسط الشمالية والجنوبية. فحوض المتوسط كمنطقة جيوبوليتيكية هو الإطار لتكوين أوروبا، وهذا هو أحد الاستنتاجات الجوهرية للكتاب: ولادة أوروبا ارتبطت بظهور الإسلام في منطقة البحر المتوسط. إذاً يستحيل فهم الحاضر ومعرفته من دون فهم أو معرفة تأريخ الجهاد والحروب الصليبية الذي هو تأريخ التهديد المتبادل.

يهتم طيبي – في معرض تحليله لأسباب قصور الغرب في فهم العمليات الجارية في العالم الإسلامي – بحال دراسات علوم تاريخ الإسلام في ألمانيا، كمثال. فهو يقول انه لا يوجد قسم علمي لدراسات تاريخ الإسلام في أية جامعة ألمانية في الماضي أو في الحاضر، والسبب هو النظرة المستعلية. ففي نظر الألمان، للجرمان والفرنجة والرومان والإغريق تاريخ، أما المسلمون فليس لهم تاريخ. ويقول المؤلف: بما أن المسلمين يملكون تاريخاً أيضاً، يجب إعطاء هذا التاريخ المرتبة العلمية التي يستحق في ميدان علوم التاريخ.

يدرس المؤلف العلاقة بين شارلمان وهارون الرشيد وتأثيرها في قيام أوروبا. ويعتبر هذه العلاقة سياسة واقعية تضمنت عناصر تشير إلى وجود نيات للحوار بين الطرفين. لكن العلاقة توقفت لاحقاً بسبب استمرار شعور أوروبا بالتهديد من الإسلام (الجهاد والفتوحات)، فاقدمت في ما بعد على القيام بضربة مضادة (وقائية).

يحلل المؤلف كذلك ما سماه الجهاد الحديث (نيو – جهاد) في الثلث الأخير من القرن العشرين، ويعتقد أن الاسلاموية كنوع من أنواع الأصولية الدينية قامت على أنقاض فشل تجربة أوْرَبة البلدان العربية والإسلامية.

يبحث المؤلف في المقدمة علاقة الإسلام بأوروبا، الجهاد والفتوحات الإسلامية في مقابل حروب الغرب الصليبية، والتنافس بين العالمين الإسلامي والأوروبي. ويخصص الفصل الأول من كتابه لدراسة مفهوم الجهاد وتاريخه، وتاريخ الفتوحات، ويذكر أن الجهاد لا يعني بالضرورة الحرب. ويبحث الحيرة الناجمة عن التناقض بين مبادئ الإسلام المتسامحة والمسالمة والواقع المقاتل. أما في الفصل الثاني فيدرس ظهور أوروبا في ظل التهديد الإسلامي، وهو العامل الحاسم الذي وحد أوروبا في كيان حضاري، وكيف حدث الحوار السياسي والثقافي بين الرشيد وشارلمان. وينتقل في الفصل الثالث الى دراسة الحروب الصليبية وكيف أدت دعوة البابا اوربان الثاني إلى مذابح جماعية تتنافى مع روح المسيحية. ويبحث المؤلف في الفصل الرابع إحياء الجهاد والفتوحات في عهد العثمانيين والتركة التي خلفتها حروب العثمانيين في البلقان وانعكاسها في الواقع المعاصر. أما الفصل الخامس فيخصصه لعصر النهضة في أوروبا، حيث لاحت من جديد بوادر الالتقاء بين الإسلام وأوروبا عبر العلوم والثقافة وهيمنة الفكر العربي – الإسلامي على مجرى تطور الحضارة الأوروبية، لكن هذا المنحى انكسر مع عودة الشعور بالتهديد لدى الطرفين (التوغل العثماني في شرقي أوروبا وفي البحر المتوسط، وما تلاه من هجوم أوروبي معاكس). وتأتي الخطوة التالية في سيطرة أوروبا على العالم – وهو موضوع بحث الفصل السادس –، بصيغة جديدة من الحروب الصليبية. وعلى رغم ذلك تجسد ظهور الفكر الإنساني الأوروبي في القرن الثامن عشر بحصول إمكان آخر للتلاقي بين الشرق والغرب. وفي هذا الفصل يطرح الكاتب تساؤلات من نوع: ما هو التأثير الذي مارسه الإسلام على أوروبا؟ أو هل تستطيع المعرفة الربط بين الحضارات؟ كذلك يبحث في موقف الإسلام من العلوم الحديثة.

يتناول الفصل السابع آخر نظام إسلامي (العثماني) وعملية «الغربنة»، وكيف قاومت الانكشارية والعلماء عملية إصلاح الإمبراطورية العثمانية وأسباب فشل الإصلاح. أما الفصل الثامن فيحلل الظواهر المعاصرة من قبيل الأصولية، وهل هي نوع من الصحوة الإسلامية أم مقدمة لصراع حضارات جديد، ويصف تحول الإعجاب بأوروبا إلى تمرد «جهادي» معاد لأوروبا. وهنا يصف المؤلف النيو – جهاد بأنه صراع ضد «غربَنة» العالم. وفي ختام الفصل يتساءل المؤلف عن إمكانات السلام بين الإسلام والحضارة الغربية على رغم تركة الجهاد – الحروب الصليبية.

وخاتمة الكتاب – وهي الدراسة التي وضعها البروفيسور جولت روشتوفاني رئيس قسم العلاقات الدولية في جامعة بودابست للاقتصاد – لا تقل أهمية عن كتاب بسام طيبي ذاته، فهو يحلل عودة التناقضات القديمة التي طمستها المواجهة بين القوتين العظميين، الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية، الى واجهة الأحداث بعد انتهاء الحرب الباردة بانهيار النظام الاشتراكي. «فظهر في التسعينات نظام عالمي جديد مبني على الفوضى، تعاظم فيه دور الثقافة (والحضارة التي ترتبط بها في شكل وثيق). وانبثقت بعنف هائل إلى السطح ظواهر ذات خلفية ثقافية (مثل القومية والعرقية وتعدد الثقافات وسياسات الهوية المرتبطة بها وتعاظم ثقل الأديان)، وأخذت الثقافة بالتغلغل في مجالات العلاقات الدولية المختلفة مثل السياسة الخارجية والديبلوماسية».

ويركز روشتوفاني على رأي طيبي القائل بوجود تناقض في النظام العالمي لما بعد الحرب الباردة يتمثل في ثنائية العولمة الهيكلية (الاقتصاد والاتصالات) من جانب، والتشظي الثقافي من جانب آخر. والعولمة تغذي الوعي بالحضارة التي ينتمي إليها الفرد، ما يؤدي إلى ممارسات متطرفة مثل معاداة الأجانب و«الاصولية الثقافية» بحسب تعبيره. ويشير روشتوفاني إلى أن هذه العمليات ظهرت في العالم الإسلامي في شكل النهضة الإسلامية، وبالدرجة الأولى عبر تنامي العامل السياسي للإسلام.

بعد زوال «التهديد السوفياتي» بانهيار النظام الاشتراكي، بدأت الصحافة في الغرب الحديث عن فراغ، وسرعان ما بدأ «التهديد الإسلامي» بملء هذا الفراغ. وبالطبع، الحديث هنا ليس عن الإسلام في ذاته، بل عن الإسلام السياسي، أو الاسلاموية.

ويدرس روشتوفاني لغة المسؤولين الغربيين بالارتباط مع ١١ أيلول، فيذكر أن الإدارة الأميركية الممثلة بالرئيس بوش تراجعت عن بعض مفرداتها التي استعملتها في البداية من قبيل «حرب صليبية» أو «العدالة اللامتناهية»، على رغم استمرار الحديث عن تقسيم العالم إلى محوري الخير والشر والهجوم على «الحضارة» و«العالم المتحضر»، وتمادي برلسكوني في الحديث عن تفوق الحضارة الغربية (وهو الذي عودنا على غرائب التصريحات). وأشعلت الأحداث النقاش بين المتخصصين في شؤون الإسلام في الغرب، وتبلورت عموماً ثلاثة اتجاهات: يقول الأول ان المتطرفين من أمثال بن لادن لا يمثلون الخط العام للإسلام السياسي، بل هو جناح متطرف من الاسلاموية. الثاني يقول ان كل الإسلام الأصولي، أو الاسلاموية هو «حركة قتل»، وأي سلفي هو «قاتل محتمل» (دانيال بايبس) وأن العدو الأول للغرب هو «الإسلام المقاتل» (بايبس أيضاً). أما الاتجاه الثالث فيذهب أبعد من ذلك ليقول ان الإسلام بحد ذاته متماثل مع العنف والإرهاب «ومعاد للحضارة»، وأن حل الصراع مع الإسلام هو تدمير الإسلام نفسه. والرأي الأخير طرحه كاتب من أصل عربي ومسلم يعيش في هنغاريا.

وعلى رغم وجود مؤيدين للرأيين المتطرفين الأخيرين، فإن غالبية الباحثين تميل إلى الرأي الأول. فغالبية الحركات الاصولية دانت أحداث ١١ أيلول واعتبرتها متعارضة مع الإسلام.

ويحلل أحداث احتلال العراق الأخيرة، فيقول ان الهدف الذي ميز الحرب الباردة هو منع استعمال العنف في العلاقات الدولية، الأمر الذي تغير في التسعينات فأصبح استعمال العنف جزءاً عضوياً من النظام العالمي (مثل التدخل الانساني واستعمال العنف الذي يصاحب بوقوع ضحايا لمنع وقوع ضحايا أكبر). هذا المبدأ أصبح أكثر وضوحاً بعد ١١ أيلول، فقد حل الأمن في الموقع الأول من أولويات السياسة الخارجية الأميركية، وأعلنت الحرب على الإرهاب. وعلى رغم أن صدام حسين فشل في «أسلمة» الحرب وكسب الرأي العام الإسلامي إلى جانبه، كما حدث في حرب الكويت، فإن لغزو العراق تأثيرات بعيدة المدى في العلاقة بين الإسلام والغرب. ومع أن الوجود الأميركي في العراق في حجمه وطبيعته لا يرقى إلى وجوده في بلاد عربية أخرى، فإن لاحتلال بغداد التي كانت مركز الخلافة لقرون تأثيراته العاطفية.

وغالباً ما خرقت عمليات مكافحة الإرهاب حقوق الإنسان بسبب الانتماء الديني أو العرقي. وعززت سياسة الولايات المتحدة البلبلة في العالم الإسلامي. فعندما يتحدث المحافظون الجدد بلسان الرئيس بوش عن «العدالة الأميركية» ويقولون: من ليس معنا فهو مع الإرهاب، يتساءل الكثيرون: هل توجد «عدالة إسلامية» في المقابل؟ وهناك بين المفكرين العرب من يؤيد السياسة الأميركية ويراها وسيلة لتحقيق نظام شرق أوسطي علماني وديموقراطي، غير أن الغالبية ترى أن هذه السياسة تغذي التطرف الاسلاموي وتعمق من عداء العالم الإسلامي لأميركا. فهذه ليست حرب تحرير بل غزو واحتلال وتدخل خارجي في الشؤون الداخلية لدولة عربية، هدفه النهائي ضمان المصالح الأميركية الاستراتيجية.

هل هناك من حل؟ يتساءل روشتوفاني. يشير هنا إلى تشخيص بسام طيبي لوجود أزمة في الإسلام المعاصر، يسميها في عمل سابق له (أزمة الإسلام المعاصر، ١٩٨١) اضطراب الهوية في الجانب الاجتماعي – الاقتصادي من جهة، وفي نتائج «الغَربَنة» من جانب آخر. ويعطي الحل في كتاب تال (الشرق الأدنى، منطقة الأزمات، ١٩٩١) فالخيار هو خيار المسلمين بين شكلين للحكم: الأول هو نظام حكم جائر مثل نظام صدام حسين المتمثل في «دولة الرعب»، والثاني هو مدينة الفارابي الفاضلة، التي توجه من خلال العقل البشري والفكر العقلاني. لكن ذهاب نظام صدام حسين جلب المزيد من التعقيد، فالحرب بتناقضاتها زادت من مآزق الخيارات الإجبارية المسلطة على المسلمين. فثنائية هذا المآزق تتأتى من تضافر عوامل داخلية وأخرى فرضها النظام العالمي الخارجي. والوضع الحالي غير المتناظر والمتعادل لا يؤدي إلى حوار بين الطرفين. لكن الحوار الذي يدعو اليه طيبي لا يؤدي إلى تجاوز بعض الخلافات الحضارية – الثقافية، لأن ذلك لن يزيل الفوارق الهيكلية والفوارق الناجمة عن احتلال مواقع غير متكافئة في النظام العالمي. فالحضارتان في مواقع غير متكافئة، حيث تجني إحداهما نعم العولمة وفوائدها، وتعاني الثانية مشكلاتها وأضرارها. ويرى روشتوفاني أن إحدى هاتين الحضارتين مضطرة للتسليم بأن قوانين اللعبة العالمية تحددها البلدان التابعة للحضارة الثانية.

يرى روشتوفاني أن طروحات هنتنغتون في «صراع الحضارات» (١٩٩٣) هي غير صحيحة في عمومها، لكن علينا أن نقر بأن الأصوليين يتحدثون صراحةً أو ضمناً عن صراع الحضارات. فالاسلامويون يجابهون هيمنة الغرب و«الغربنة»، ويؤمن أصوليو الغرب أيضاً بصراع الحضارات، عندما يساوون بين الإسلام والبربرية ويبحثون عن جذور الإرهاب في الإسلام نفسه ويؤمنون بصحة القيم الغربية لا غير.

قال البعض إن ما حدث بعد ١١ أيلول هو حروب بين الأصولية – الدينية بالدرجة الأولى – وكل من يؤمن بالحرية والحداثة. ويعلق روشتوفاني على ذلك بأن الأحداث الأخيرة أعطت لذلك قراءة جديدة لخصها بالعبارة الآتية: «صراع الاصولية». فالخطر على العالم الآن هو المجابهة بين ايديولوجيات سياسية مبرقعة بغطاء ديني. فالاسلاموية والأميركانية Americanism على السواء من هذا الصنف من الايديولوجيات.

* كاتب عراقي مقيم في بودابست.

# الفلسطينيون وفك الارتباط ...

عمر كيلاني *

■ يبدو ان فك الارتباط مع الفلسطينيين سلطة ومنظمة وفصائل وشعباً أصبح عنواناً أو هدفاً لحال دولية واقليمية وعربية واسرائيلية تزداد قوة وضغطاً وتعاظماً مع مرور الوقت لهدف أولى هو اجبار الفلسطينيين على فك الارتباط فيما بينهم تمهيداً للهدف الاستراتيجي المتمثل بإجبارهم على التنازل عن كل ما لم يتنازلوا عنه من حقوق لهم وبالتالي اخضاعهم لمشيئة القرار والاستراتيجية الأميركية والاسرائيلية.

بدأ استخدام مفهوم فك الارتباط في الأدبيات السياسية العربية بعيد انتهاء حرب اكتوبر ١٩٧٣ عندما استخدم مصرياً واسرائيلياً وأميركياً لوصف المفاوضات التي أجريت في الكيلومتر ١٠١ على الأراضي المصرية للتوصل الى ما عرف بفك الارتباط (وبتعبير أدق فك الاشتباك) بين القوات الاسرائيلية والمصرية سواء تلك التي كانت غرب قناة السويس أو شرقها. وكان هذا الاتفاق أو ما عرف باتفاقية سيناء الأولى مقدمة للتوصل الى ما عرف باتفاقية سيناء الثانية، واللتين شكلتا معاً الأرضية التي انطلق منها الرئيس المصري السابق أنور السادات للقيام بزيارته الشهيرة للقدس عام ١٩٧٧ وللتوقيع على اتفاقيتي كامب ديفيد عام ١٩٧٨ ومعاهدة السلام المصرية – الاسرائيلية عام ١٩٨٩.

وترافق فك الارتباط العسكري هذا على الجبهة المصرية بالتوجه الى عقد ارتباط سياسي بين الجانبين (معاهدة السلام)، أما على الجبهة العربية فقد ترافق بفك ارتباط شبه تام بين مصر والدول العربية بعد قرارات قمة بغداد ١٩٧٨، وترافق بما هو أخطر أيضاً عندما بدأ تفكيك التضامن العربي، مما أتاح لإسرائيل الفرصة للقيام بغزو لبنان عام ١٩٨٢ ووصول قواتها الى بيروت حيث حاصرت القوات الفلسطينية هناك وتمت بعدها عملية فك ارتباط أكبر:

١ – فك ارتباط القوات الفلسطينية بلبنان واخراجها منه وتوزيعها على عدد من الدول العربية.

٢ – فك ارتباط قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بلبنان واخراجها بعيداً من ما يعرف بدول الطوق ودفعها الى التمركز في تونس.

٣ – فك الارتباط العربي بالمقاومة الفلسطينية عبر منع الدول العربية من التضامن مع القيادة والمقاتلين الفلسطينيين خلال حصار اسرائيل لهم لمدة ثلاثة أشهر في بيروت.

جرت بعد الغزو أكثر من محاولة لاستغلال الضعف الذي حل بالفلسطينيين لاستقطابهم واقتسامهم عربياً، وكان من أبرز تلك المحاولات التوصل الى ما عرف باتفاق عمان عام ١٩٨٤ الذي أملت القيادة الأردنية بأن يكون مدخلاً لها لمشاركة القيادة الفلسطينية التمثيل الشرعي للشعب الفلسطيني، الأمر الذي دفع القيادة الأردنية عام ١٩٨٨ الى اتخاذ قرارها الشهير بفك الارتباط مع الفلسطينيين (الضفة الغربية) مما أتاح الفرصة بالتالي لقيادة المنظمة لإعلان الاستقلال والدولة الفلسطينية في المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٨.

بدا واضحاً مع اعلان فك الارتباط الأردني وما سبقه من فك ارتباط مع كل من سورية ولبنان ان القيادة الفلسطينية عبر تمسكها باستقلالية القرار الوطني الفلسطيني ترغب بمفاوضة الأميركيين والاسرائيليين مباشرة وليس عبر شركاء أو وسطاء حتى ولو كانوا عرباً وهو ما تجلى لاحقاً في اتفاق أوسلو عام ١٩٩٣ وما تبعه من اتفاقات مع الاسرائيليين برعاية أميركية. ومع اعلان هذا الاتفاق ازداد فك الارتباط بين الفلسطينيين وعدد كبير من الدول العربية وظهرت في المقابل مراهنة كبيرة على ارتباط فلسطيني مباشر بالولايات المتحدة واسرائيل. إلا ان هذه المراهنة لم تدم طويلاً، إذ سرعان ما انتهت الى الفشل في مفاوضات كامب ديفيد في صيف عام ٢٠٠٠ حين اكتشف الفلسطينيون أن هذا الارتباط يتطلب أثماناً باهظة لا يقدرون على وضعها على طاولة المفاوضات، خصوصاً ان بعض هذه الأثمان عربية واسلامية لا يملكون حق التصرف بها. الأمر الذي دفع الأميركيين والاسرائيليين الى بدء عملية واسعة من أجل اسقاط كل رهان فلسطيني على الارتباط بهم من دون دفع الثمن والعمل في مرحلة لاحقة من أجل فك ارتباطهم بالفلسطينيين كقضية، بما في ذلك استرجاع ما سبق وأن قدموه لهم اثر اتفاق أوسلو وسحب كل الوعود السابقة.

مع انطلاقة الانتفاضة الفلسطينية الثانية وما تخللها من عمليات مقاومة استشهادية شن الاسرائيليون والأميركيون هجوماً معاكساً على أكثر من جبهة، من جملة أهدافه:

١ – الغاء اتفاق أوسلو واقعياً عبر تدمير بنى ومؤسسات وقوات السلطة الفلسطينية واعادة احتلال مناطق السلطة.

٢ – وصم رئيس السلطة وعدد آخر من قياداتها بالإرهابيين، وتصنيف عدد كبير من الفصائل الفلسطينية ضمن القوائم الأميركية الخاصة بالجماعات الإرهابية.

٣ – رفض التعامل مع رئيس السلطة الفلسطينية بعد احتجازه في مبنى المقاطعة في رام الله واعتباره حجر عثرة أمام السلام لا بد من ازالته قبل استكمال المسيرة السلمية.

٤ – وقف الدعم العربي لنضال الشعب الفلسطيني وحقه في العودة.

ويترافق ذلك الآن مع هجوم أوسع تشنه الولايات المتحدة الأميركية على المنطقة وقد تم خلاله احتلال العراق وتوجيه ضغوط وتهديدات قوية الى أكثر من دولة عربية حيث أصبح الكثير من الدول العربية أشبه بالمحاصرة من جانب الأميركيين مطالبة باتباع وتنفيذ جملة سياسات داخلية واقليمية تنسجم وتتلائم مع الرؤية الاستراتيجية الأميركية للمنطقة راهناً ومستقبلاً.

انهار التضامن العربي منذ سنوات طويلة وحل التنسيق مكانه وجاء الآن مرحلة التفكك العربي بما فيها فك الارتباط في ما بين الدول العربية بعضها ببعض وفي المقدمة بين الدول العربية وفلسطين التي كانت الرابط والجامع القومي لهذه الدول، وإذا ما استمرت الأوضاع الراهنة ربما نشهد في السنوات القريبة المقبلة احتلالاً أميركياً لعدد آخر من الدول العربية وانهيارات على مستوى التضامن الوطني في بعضها (فك الترابط والارتباط الوطني).

على الصعيد الفلسطيني تظهر قراءة المؤشرات الراهنة ان ثمة رهاناً أميركياً واسرائيلياً على أحداث انهيارات في الموقف الفلسطيني تؤدي الى فك ارتباط الفلسطينيين ببعضهم تمهيداً لتصفية قضيتهم وإذا أمكن وجودهم السياسي المستقل ولعل أبرز الشواهد على هذا الرهان:

١ – الحيلولة دون أي مؤازرة من فلسطيني الجليل والشتات لفلسطيني الضفة والقطاع.

٢ – مصادرة دور وفاعلية الهيئات القيادية الفلسطينية الممثلة للشعب الفلسطيني وفي المقدمة منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية سواء على المستوى الفلسطيني أو العربي أو الدولي، فهذه الهيئات لا تستقبل في العواصم العربية والعالمية وتستقبل بأصوات المعارضة في الساحة الفلسطينية.

٣ – محاصرة الفصائل الفلسطينية بتهمة الارهاب وارغامها على العيش في حال شلل نضالي وسياسي واعلامي.

٤ – تشتيت مركز القرار الفلسطيني وجعله نهباً بأيدي أكثر من جهة فلسطينية تدعي كل منها الأحقية به.

لعل هذه أصعب وأقسى المراحل التي يمر بها الفلسطينيون والدول العربية منذ عام ١٩٤٨، وثمة مخاوف جدية وكبيرة من أن تكون مقدمة للعودة بالفلسطينيين والعرب الى ما هو أسوأ بكثير: الى أوضاع شبيهة بما حل بالعرب بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى وفرض نظام الانتداب والوصاية والوعد بإقامة وطن قومي للصهاينة في فلسطين.

* كاتب فلسطيني.

## إخباريات الخوف

محمد المنصور الشقحاء *

■ الخوف إحساس يشاركنا حياتنا، يتكون من انفعال صدامي يبرز في كل حال نمر بها.

والتركيز دائماً على مشاعر الخوف من الله سبحانه وتعالى يحيل احياناً في نظري، الى شيء من النفاق، فالله تعالى يحثنا على خشيته كما على عبادته وتجنب الظلم في معاشنا. يقول سبحانه وتعالى: [يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون].

عوامل الخوف التي يروج لها الخطاب الديني المعاصر ورث عناصرها من رهبانية مكروهة انتشرت في بعض كتب السلف فكان النقل غير موفق.

وبالتالي ارتفع صوت الخوف من الله بدلاً من ان نطلب منه (العفو والمعافاة) وأصبحنا نخاف الإحباط ونحن نقول عقب كل صلاة «اللهم آتني في الدنيا حسنة وفي الآخر حسنة».

لماذا تحول الرجاء والأمل الى خوف، هل هذا مكتسب من اجل سلطة المصالح وبناء الذات على رقاب الباقين؟ وقال تعالى: [وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون].

نحن اليوم نفقد القوم الذين يفقهون مطلب الأمة. ان الركض الى الماضي بوهم الخوف دليل نقص.

يقول سبحانه وتعالى: [قتل الخراصون] والحمد لله رب العالمين.

* كاتب سعودي.

## ألف وجه لألف عام

# «الشرفة» لجيمس ويستلر: اليابان في قلب أوروبا الرمادية

■ ما الذي كان في الإمكان توقعه من فنان كان ولد في ولاية ماساتشوستس الأميركية، وأمضى سنوات حياة الأولى في روسيا، حيث بدأ حياته الدراسية بدراسة الفنون في أكاديمية الفنون الجميلة في سانت بطرسبرغ، ليلتحق بعد ذلك، إذ اقترب من سن الشباب بكلية وست بوينت العسكرية في الولايات المتحدة الأميركية. ثم ما إن يشب عن الطوق يتيم الأب ثري العائلة حتى تسمح له والدته بأن يتوجه الى أوروبا والى فرنسا تحديداً ليدرس الرسم ويقيم في القارة القديمة بصورة نهائية؟

وما الذي يمكن، فنياً توقعه، من فتى مرهف الحس تنقل بين النزعة الطليعية الروسية (في زمنه) وبين بدايات النزعة الواقعية الأميركية، ليرتبط لاحقاً بالفرنسيين هنري فونتان لاتور وغوستاف كوربيه، ويتأثر بعدد من الانطباعيين أمثال ديغاومانيه، قبل أن يحقق ما كان هو نفسه يدعوه «اكتشاف» حياته: أي الاطلاع عن كثب على اللوحات اليابانية التي كانت بدأت تصل فرنسا على شكل اسطامبات، لتؤثر في عدد كبير جداً من الفنانين، معطية اياهم امكانات تعبير جديدة هائلة، وأساليب تكوين للوحات واستخدام للألوان ما كان لها وجود في السابق؟

«الشرفة» لويستلر (١٨٧٠).

انها هنا، وعبر هذه التساؤلات، نشير طبعاً الى ذاك الذي سيعتبر، حتى ولو عاش معظم سنوات حياته في أوروبا وعمل فيها، المؤسس الحقيقي للفن الأميركي الحديث: جيمس أبوت ماكنيل ويستلر، هذا الفنان الذي يكتشف وتكتشف أعماله أكثر وأكثر، ويحسب حيناً في خانة الانطباعيين، وحيناً آخر في خانة الواقعيين الأول، مع أن عدداً كبيراً من لوحاته يحيل مباشرة الى الفن الياباني.

● والحقيقة ان ويستلر، عاش وعمل خلال حقبة من الزمن كانت الفنون الأوروبية فيها تسعى للاستلهام من كل مصادر الوحي الفني الممكنة، وخلال الفترة السابقة تماماً، كانت الفنون الشرقية وصلت الى أوروبا، آتية من الشرق القريب أو من الشمال الأفريقي، أو من المخيلات الواسعة التي كانت قرأت «ألف ليلة وليلة»، وحلمت بحياة الحريم في قصور اسطنبول، أو ما شابه ذلك. أما في عصر ويستلر، فإن الشرق البعيد كان بدأ يقترب... ومن هذا الشرق أتت تلك الأعمال اليابانية التي أثارت الدهشة، مواضيع وأشكالاً وألواناً وضوءاً غامراً. ولم يكن في وسع فنان كويستلر، كان يبدو، مثل وطنه الأميركي، باحثاً عن هوية بعدما تكونت هويته من كل مصدر ممكن، لم يكن في وسعه إلا أن يغوص في هذه الأساليب الجديدة حتى النخاع... ومن هنا طغى على العدد الأكبر من لوحاته، تشكيل ياباني، بدا في بعض الأحيان خادعاً، إذ بات من غير الممكن في بعض اللوحات التفريق بين الفن الياباني الحقيقي، وهذا الفن المستلهم من اليابان وحكاياتها.

● ذلك أن ويستلر، لم يكتف – في لوحات كثيرة – بأن يستعير الأساليب اليابانية ليزاوج بينها وبين مشاهد البيئة الغربية، بل وصل الى حد رسم لوحات «يابانية» خالصة، كان يستلهم مواضيعها أحياناً من قراءته للأدب الياباني الذي بات متوافراً، ولكن في أغلب الأحيان، مباشرة من اللوحات اليابانية. ولعل لوحة «الشرفة» قادرة أكثر من أية لوحة لويستلر أن تضعنا في قلب هذه الاختيارات. ولئن كنا هنا نستخدم «الشرفة» كعنوان للوحة، فإن ما لا ينبغي أن يفوتنا هو أن للوحة عنواناً أكثر اتساعاً ودلالة وهو «تنويعات على لون البشرة والأخضر: الشرفة». إذ ان تقريباً، في النصف الأسفل لدينا مشهد ياباني خالص، حتى وان كان من الصعب القول ان النساء المرسومات يابانيات: انهن على الأقل، يرتدين الثياب اليابانية، بألوانها الخاصة، ويجلسن بين ورود متناثرة تماماً كما هي الحال في الاسطمبات اليابانية. وفي يد كل واحدة منهن آلة موسيقية يفترض انها يابانية، كما ان السيدة المستلقية عَرَضاً تمسك ما يبدو لنا انه مرآة يابانية الصنع، ناهيك بأن السيدة الواقفة مطلة من حاجز الشرفة ترتدي كيمونو يابانياً. أما النصف الأعلى من اللوحة، فمن الواضح للخبراء أنه يمثل مشهداً لندنياً: انه منطقة باترسي بالتأكيد. والحقيقة أن ويستلر عرف كيف يوحد العالمين، تشكيلياً من خلال تلك السيدة الواقفة نفسها، إذ لولا وجودها هنا لكان من الممكن القول ان ما لدينا انما هو مشهدان لا رابط بينهما: الشرفة اليابانية الخالصة بكل ما ومَنْ عليها، والخلفية الغربية الخالصة، بل ان أسلوب التلوين نفسه يساهم هنا في توضيح وجود عالمين، إذ في الجزء الياباني تبدو الألوان ربيعية مزدهية كما يخلق بألوان أي مشهد ياباني أن يكون، بينما تسيطر الألوان الرمادية على القسم الآخر.

● لقد عرض ويستلر لوحته «اليابانية» هذه، للمرة الأولى في معرض جماعي في «رويال اكاديمي» في لندن في العام ١٨٧٠. واللافت أن تاجر خرضوات ودمى لندنياً، ما إن شاهد اللوحة معروضة عند ذاك، حتى أكد أن الرسام كان اشترى من عنده في وقت سابق بعض الاكسسوارات والدمى اليابانية، وها هو – أي التاجر – يراها في اللوحة. أما النقاد الأكثر جدية فقد رأوا ان ويستلر استقى موضوعه، وتشكيل اللوحة أيضاً، من محفور على الخشب للفنان الياباني توريي كيوناغا، رسم قبل ذلك بقرن من الزمن، وأضاف اليه تكوينات ثانوية استلهمها من لوحة للفنان هارونوبو. والحقيقة أن أي مقارنة سريعة بين لوحة كيوناغا ولوحة ويستلر، ستؤكد هذا الأصل الواضح للوحة الفنان الأميركي المتأورب.

● ونعرف طبعاً أن لوحة «الشرفة» هذه، لم تكن اللوحة «اليابانية» الوحيدة التي رسمها ويستلر، حتى وان كانت ويستلر اعتاد أن يعطي لوحاته، وعلى الأقل خلال مرحلة من حياته وعمله، عناوين تنتمي الى فن الموسيقى، هو الذي اعتبر الرسم والموسيقى في نهاية الأمر فناً واحداً. ومن هنا نجد في أسماء لوحاته عناوين مثل: «سيمفونية...» و«تنويعات...» و«هارمونيا...» و«نزوة...»، وهي مصطلحات آتية من الموسيقى مباشرة.

● والحال ان هذا المزج كله: بين فنون الشرق والغرب، بين الموسيقى والرسم، انما كان يشكل جزءاً جوهرياً من شخصية هذا الفنان. وما لوحة «الشرفة» سوى المثال الحي والأجمل على ذلك كله. فاللوحة تنقسم أفقياً الى نصفين الأشهر، إذ ثمة عشرات اللوحات «اليابانية» التي تحمل توقيع ويستلر، ولكن هناك أيضاً لوحات واقعية أوروبية خالصة رسمها هذا الفنان، ومنها لوحة شهيرة صور فيها أمه، ولوحة لاحقة لها، مشابهة لها كذلك، صور فيها الكاتب الانكليزي توماس كارلايل (نشرناها أمس مع فقرة «ألف وجه لألف عام» المكرسة لكتاب «الأبطال وعبادة البطولة» لكارلايل، في هذه الصفحة بالذات)؛ وهناك فئة ثالثة من أعمال ويستلر يبدو فيها الفنان متأثراً بلوحات تورنر المائية ذات السفن والمرافئ... ولكن الفنان عرف كيف يخلق من كل ذلك التنويع وحدة فنية من اللافت ان النقد وتاريخ الفن استغرقا زمناً قبل اكتشافها واكتشاف عناصرها المتنوعة، والمرتبطة أصلاً بنزعة كوزموبوليتية سيطرت دائماً على ويستلر وعلى عمله.

● ولد ويستلر العام ١٩٣٤ في مدينة لويل (ماساتشوستس) الأميركية. وبعد أن أمضى طفولته في نيوأنغلند، كانت مرحلة الطفولة التي قضاها في روسيا حيث تأسس ولعه بالرسم. وانتقل العام ١٨٥٥ الى باريس، بعد سنوات الكلية الحربية في وست بوينت، ولكن باريس رفضت لوحاته الأولى في معارضها، على رغم مساندة الانطباعيين له، فانتقل العام ١٨٥٩ ليعيش في لندن، وهناك واصلت الفنون اليابانية تأثيرها فيه. وفي العام ١٨٦٦ هاجر الى الشيلي ثم عاد الى لندن، حيث بدأت مشاهد نهر التاميز تعطيه إلهامات لوحاته «الليلية» الأولى التي سار فيها على منوال تورنر معطياً اياها عناوين موسيقية، وهو خط سيواصله حتى سنواته الأخيرة، هو الذي سيرحل في العام ١٩٠٣ من دون أن يحقق المجد الذي كان يستحقه وكان يصبو اليه، خصوصاً وأن بعض النقاد الانكليز وعلى رأسهم راسكين حاربوه طويلاً وأوصلوه الى الافلاس على رغم النجاح الكبير الذي حققه معرض أعماله الأساس الذي أقيم العام ١٨٩٢ في غاليري غوبيل اللندني...

ابراهيم العريس